هو لَمْ يجزم بخيانتها كل الجزم؛ فلماذا يتركها؟ ... ولكنه لا يسر بلقائها؛ فلماذا يلقاها؟

وهي لَمْ تيأس من صلاح شأنه معها، أو لعلها لَمْ تيأس من قدرتها على خداعه، ويعز عليها أن تتهم نفسها بهذا العجز وهي تفخر بذكائها؛ فلماذا تفقد الثقة بحيلتها وبراعتها واقتدراها؟ ولماذا لا تجرب كياستها مرةً بعد مرة حتى تنجح أو يستوي لديها الفشل والنجاح؟

وهكذا ظلَّا أشهرًا عديدة يمثِّلان سعادتهما الأولى، ويخرجان من مسرح التمثيل كل يوم راضيَيْن أو ساخِطَيْن، وخير ما وصلا إليه في تلك الفترة الطويلة أن يظفرا بالتصفيق من المتفرجين ... وهما وحدهما المتفرجان والممثلان!

وكلما حان موعد اللقاء ذهبا إليه كما يذهب الممثل إلى حضور تجربة جديدة بعد أن فشلت تجربته السابقة، ولا بد له من الذهاب، ولا سرور له في القعود والإحجام والتسليم بينه وبين ضميره أن الذهاب لا يفيد.

لقد كانا يحضران إلى الموعد بحكم العادة التي لَمْ يجسرا بعدُ على تغييرها؛ لأنهما كانا يخافان من التفكير في التغيير، ويخافان من التفكير في ذلك الخواء الموحش الذي يستولي عليهما لا محالة بعد ذلك التغيير.

فهما يحضران لأنهما خائفان من الغياب، لا لأنهما راغبان في الحضور.

أما قبل ذلك فما أبعد الفرق وما أهول الاختلاف وما أَحَبَّ اللقاء بعد طول الانتظار! وإن أطول أمد لهذا الانتظار ما كان ليزيد على يومٍ واحدٍ، أو بعض يومٍ في بعض الأوقات.

كانت الساعة الخامسة كأنها علامة موسومة في مدار الفلك بالشُّهب والكواكب والهالات، وكان صاحبنا يتعجل الوقت قبل حلولها بربع ساعة فيلتزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقوبها إلى منعطف الطريق حيث يلوح القادم أول ما يُقبِل على الدار، وكثيرًا ما كانت الغيوم تكفهر والغيوث تنهمر والهواء يعصف باردًا قارسًا في صبَّارة الشتاء، وصاحبنا واقف وراء النافذة قبل الموعد بربع ساعة يوشك وهو وَجِل منقبض الصدر غائم الخاطر أن ييأس من وصول صاحبتنا في موعدها، ولها العذر كل العذر إذا هي تأخرت ساعات أو عدلت عن الخروج طوال ذلك اليوم، ولا يزال في مرقبه نهبًا لهذا الوسواس لمحة بعد لمحة، كأن الزمن قد استحال إلى أجزاءٍ تُعدُّ بالملايين وملايين الملايين لا بستين دقيقة في الساعة وستين ثانية في الدقيقة! وكلما تقدم جزء من هذه الملايين تضاعف الوجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات في قارورة يرجها الشلال